مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (4)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (4) 2016

الرسائل الوصفية وأنواعها لدى عماد الاصفهاني

الدكتور خليل غريري*
مسعود أميري**

(تاريخ الإيداع 30 / 6 / 2016. قبل للنشر في 2 / 8 / 2016)

□ ملخّص □

تهدف هذه المقالة إلى معرفة الرسائل الوصفية وانواعها لدى عماد الدين الاصفهاني، وهوشاعر وأديب من كبار الأدباء، وملم بالثقافتين العربية والفارسية في القرن السادس للهجرة ودراستها دراسة موضوعية وفنية أيضا، والكشف عن دورها في تصوير المجتمع الإسلامي في القرن السادس.كما تناولت الدراسة الموضوعات التي تضمنتها رسائل الوصف، كوصف أعمال السلطان، ووصف المدن، ووصف الطبيعة والحياة الدنيا ، ووصف الروم وعاداتهم، وصف الأوبئة والكوارث وإلخ. فقد ركزت على دراسة الرسائل الوصفية وأنواعها، وتقيما للدور الذي قامت به هذه الرسائل، في تصوير مختلف مظاهر الحياة في هذا القرن.

الكلمات المفتاحية: الوصف، عماد الدين، أنواع الوصف، بناء الوصف، الصورة الوصفية.

* أستاذ – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق – سورية
** طالب دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق – سورية

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (4)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (4) 2016

Descriptive Letters and their Genres of Imad Al-Asfahani

Dr. KalilChareri*
MasoudAmiri**

(Received 30 / 6 / 2016. Accepted 2 / 8 / 2016)

□ ABSTRACT □

This article is aimed at identifying descriptive letters and their genres of Imaduldeen Al-Asfahani - a poet and one of the greatest men of letters who had knowledge of both Arabic and Persian cultures in the 6th Century Hegira - as well as studying descriptive letters objectively and artistically, and revealing their role in describing the Islamic Community in the 6th Century Hegira, this article is also discussing the topics included in descriptive letters such as, the descriptions of the actions of the Sultan, cities, nature, life, the Roman and their traditions, epidemics, disasters, etc. so, this article is focusing on studying descriptive letters and their genres, and valuing the role they played in describing all aspects of life in that century.

Key words: description, Imaduldeen, genres of description, structure of description, descriptive image.

*Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University, Syria.
**Postgraduate Student, Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University , Syria.

مقدمة:

هو أبو عبد الله، محمد بن محمد بن حامد [1] بن آلهُ[2]، المعروف بابن أخي العزيز [3]، الملقب بـ عماد الدين الأصفهاني، ولد بأصفهان[4] في بلاد فارس في يوم الإثنين ثاني جمادى الآخرة سنة 519هـ[5].وكان العماد الأصفهاني مُلِمّاً بالثقافتين العربية والفارسية، وهو ينحدر من سلالة أسرة فارسية عريقة ونجد ذلك في استعماله بعض الألفاظ الفارسية[6]. "وغريب جداً أن ينسبه ابن الفوطي في مجمع الآداب إلى قريش، ثم يأتي الأستاذ محمد بهجت الأثري، فيتابعه على رأيه ويقول: "فإذا صح ما ذكره، ولا إخاله إلا صحيحاً، كان هذا البيت في الصميم من النسب العربي" [7].نشأ العماد بأصفهان ثم رحل بأسرته إلى بغداد وكان في الخامسة من عمره."دخل المدرسة النظامية المشهورة، وتفقَّه فيها، وثقف علوم اللغة العربية واشتغل في إقليدس" [8].وحفظ كثيراً من دواوين الشعر العربي القديم والجديد والخطب والأخبار إلى جانب حفظه القرآن والحديث، وساعده هذا كله في الكتابة فقد زاد ثروته اللفظية والمعنوية ومَكَّنه من صنعته ووسع أفقه في الجناس والسجع والتورية والاستعارة[9].

وقد عاد إلى بلده بعد أن قضى ببغداد تسع سنين سنة 552هـ، فلقى بها الفضلاء وصحب العلماء، وسافر منها إلى بغداد، وخرج من بغداد إلى الشام سنة 562هـ[10]، فالتقى بالقاضي الفاضل وأشار العماد إلى ذلك ونوه بفضله، وقال: "لما وصلت إلى دمشق سعى لي بكل نجح وفتح عليَّ باب كل منح" [11].توفي عماد الدين الأصفهاني سنة 597هـ/1175م بدمشق ودفن في مقابر الصوفية[12].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 171/12؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء،19/19؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،132/1-141؛ د. عمر الفروخ، تاريخ الأدب العربي،416/3؛ شهاب الدين المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة وادي النيل، مصر، القاهرة1287هـ، 144/1-147؛ د. عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص743.

(2) ضبطها ابن خلكان بفتح الهمزة وضم اللام (وفيات الأعيان 69/8)، وضبطها السبكي بضم الهمزة واللام (طبقات الشافعية 74/2). وهي لفظة فارسية معناها العقاب.

(3) نُسِب العماد إلى عمه العزيز، وكان مقدماً في العهد السلجوقي، لكن السلطان محموداً قبض عليه بهمذان، وصادر أمواله. وقبض عليه مرة ثانية بالعراق، وحبس بقلعة تكريت، وقتل فيها، وقد حاول الأمير نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه الدفاع عنه، لكنهما لم يفلحا في إنقاذه من الموت. (د. عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، الحاشية ص743).

(4) أصبهان أو أصفهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وهي الآن تقع في وسط إيران وتميل إلى غربها أكثر وهي في لغة العرب أصبهان، وكان في القرون الأولى الإسلامية مهاجر العلماء لطلب الحديث ومحط رحالهم. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت، ط2، 206/1-207).

(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، ط 2، 1405هـ/1984م، 245/21.

(6) عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء العراق، 24/1.

(7) المصدر السابق 10/1.

(8) د. عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص 744.

(9) عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، 145/1.

(10) د. عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص 745

(11) عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر 324/2

(12) ابن خلكان وفيات الأعيان 233/4 ؛ د.عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام ، ص 751

أهمية البحث وأهدافه

الهدف من هذا البحث هو معرفة الرسائل الوصفية وانواعها لدى عماد الدين الاصفهاني، ودراستها دراسة موضوعية وفنية أيضا، كما تناولت الدراسة الموضوعات التي تضمنتها رسائل الوصف، كوصف أعمال السلطان، ووصف المدن، ووصف الطبيعة والحياة الدنيا، ووصف الروم وعاداتهم، وصف الأوبئة والكوارث. فقد ركزت على دراسة الرسائل الوصفية وأنواعها، وتقيم اللدور الذي قامت به هذه الرسائل، في تصوير مختلف مظاهر الحياة في هذا القرن.

منهجية البحث:

إن المنهج ضرورة علمية لضبط الأداة المعرفية وتم اتباع المنهج الوصفي مشفوعاً بالتحليل في دراسة الرسائل الوصفية لدى عماد الدين الاصفهاني لمعالجة ما أثير حوله من تساؤلات لأن المعالجة تقتضي الوقوف عند هذه الرسائل وتحليلها

مؤلفات عماد الدين الأصفهاني:

كان عماد الدين الأصفهاني كاتباً مجيداً وشاعراً مفلقاً ومؤرخاً عالماً، وكانت كتبه مرآة صادقة لأحوال الأمة في مواجهة الحروب الصليبية، وساد في علم الترسل وصنف التصانيف واشتهر ذكره. وكان من أوائل من حفلوا بالأسلوب المسجوع في تدوين التاريخ أبو النصر العتبي[1] (ت 427هـ) في كتابه (اليميني) [2]فأبر العماد عليه وزاد في التصنيع والتعقيد والإغراق في استخدام البديع إغراقاً لا حد له [3]. والتزم التعقيد حتى في أسماء مصنفاته وله مؤلفات متعددة نثرية وشعرية، فمن آثاره النثرية:

-**خريدة القصر وجريدة العصر:** يقع في عشر مجلدات: موزعة حسب الأقاليم، العراق، الشام، مصر، المغرب، الأندلس، خراسان، هو كتاب تراجم لشعراء عصره، حفظ فيه شعرهم من الضياع، وحقق هذا الكتاب نخبة من الأدباء المعاصرين وطبعت أجزاؤه بحسب الأقاليم[4].

- **السيل على الذيل:** وهو ذيل على كتاب (خريدة القصر)، مخطوط محفوظ بالمكتبة الملكية في كوبنهاكن الدنمارك، وقد سماه ابن خلكان مرة (السيل)[5]، ثانية (السيل والذيل)[6]، وثالثة (السيل على الذيل)[7].

---

[1] هو أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي، أصله من الرّي، كان جيد الإنشاء، اشتهر بكتابه المعروف باليميني الذي ألّفه في تاريخ يمين الدولة للسلطان محمود الغزنوي، (جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة 632/1 ؛ د. عبد الغني ايرواني زاده، ود. نصر الله شاملي، الأدب العربي والإيرانيون، ص 191).

[2] الذهبي، سير الأعلام والنبلاء، 314/3؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث 2052/2، شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر، 228.

[3] عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، 62/1

[4] د. عمر موسى باشا الأدب في بلاد الشام ص 753.

[5] ابن خلكان وفيات الأعيان 53/1

[6] المصدر السابق 70/1

[7] المصدر السابق 75/1 ؛ د.عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص 754

– **نصرة الفترة وعصرة القطرة (العترة)** [1]: يدور موضوعه حول تاريخ السلاجقة ووزرائهم، وهو في الأصل تاريخ فارس لشرف الدين أنو شروان اسمه (فتور زمان الصدور وصدور زمان النتور)[2].

– **كيمياء السعادة:** (ترجم عماد الدين الأصفهاني هذا الكتاب خلال وجوده بمصر من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية سنة 576هـ، وهو من تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي، وذلك لتلبية طلب القاضي الفاضل)[3].

– **الفتح القسي في الفتح القدسي:** وهو كتاب تاريخ، مسجع العبارة يكاد يكون مغلقاً على قراء هذا العصر لغرابة أسلوبه وألفاظه، وهو كتاب هام، تحدث فيه عن انتصارات صلاح الدين، وفتح بيت المقدس، فلا تدري وأنت تقرأ، أيكتب أدباً أم تاريخاً، ويميل إلى الاستطراد فيه.

– **البرق الشامي:** ويقع في سبع مجلدات، وقد استهله بالحديث عن حياته، فذكر نشأته ورحلته من العراق إلى الشام. وختمه بقصيدة طويلة، عددها متتان واثنان وثلاثون بيتاً[4].

– **خطفة البارق وعطفة الشارق:** أرخ فيه الأحداث بعد سنة 592هـ إلى زمان وفاته[5].

– **البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان:** من سنة 592–593هـ، وهو تاريخ مختصر من نشأة الخليقة إلى زمانه، مخطوط ناقص في مكتبة أياصوفيا.

"يضاف إلى ما تقدم أن العماد جمع رسائله الديوانية التي أنشأها باسم الملوك الأيوبيين في مجموع خاص سماه (رسائل بين الملوك الأيوبيين) وهو مخطوط في مكتبة نور العثمانية، وفي معهد مخطوطات الجامعة العربية نسخة مصورة عنه"[6].

الوصف

لغة: وصف الشيء له وعليه وصفاً وصفة: حلاه، والهاء عوض من الواو، وقيل الوصف المصدر والصفة الحلية، الليث: الوصف وصفك الشيء بحليته ونعته: وتواصفوا الشيء من الوصف. [7] وقوله – عزّ وجلّ –: ((ربّنا الرحمنُ المستعانُ على ما تَصِفُونَ)): أراد ما تصفون من الكذب [8]. فمفهوم الوصف كما جاء في ((لسان العرب)) مرتبط بمعنى الإبانة والإظهار. ويقول قدامه بن جعفر: بأنه "ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات" [9]، ما حَسُنَ منها وما قبح. ويقول ابن الأثير: "الوصف يقال في الحسن والقبح".

تسمية الرسائل الوصفية وتعريفها

لم تُعرف لفظة "الرسائل الوصفية" كمصطلح أدبي يَدلُّ على نمطٍ خاصٍ في أدب الرسائل، ولكن جاءت الرسائل الوصفية ضمن الرسائل الديوانية والرسائل الأدبية، والرسائل الإخوانية، لكنها رسائل اعتمدت على الوصف والتصوير،

---

[1] حاجي خليفة (ت 1067 هـ) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بلاط، بلات، 1956/2

[2] عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء العراق 74/1

[3] د. عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص 754.

[4] ابن خلكان، وفيات الأعيان، 75/2.

[5] د. عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص 756.

[6] توجد هذه الصورة في معهد مخطوطات الجامعة العربية (ميكروفيلم) رقم 419 أدب.

[7] لسان العرب، مادة/وصف.

[8] الأنبياء، الآية 112.

[9] أبو الفرج قدامة ابن جعفر نقد النثر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ص 130.

ومن هنا جاءت تسميتها.[1] ((وتُعْنَى بتصوير الجمال إلى جانب عنايتها بتوليد المعاني، حتى إن بعضها يقارب الشعر الشعر في جمال التصوير، ورهافة الحسِّ، ورشاقة اللفظ، وتجاوب الأصوات، وتوقيع الجمل على إيقاع السجع))[2].

بتعبير آخر الرسائل الوصفية: نوع من النثر الفني يعبر فيه الكتّاب عن أنفسهم وما يعتمل فيها من من أحاسيس ومشاعر وتجارب عاشوها ومواقف عاصروها وتختلف عن الرسائل الديوانية والإخوانية. وبهذا تكون تعبيراً عن ذات كاتبها وبراعته صياغتها قد تشابه مع المقالات الأدبية، أما خصائص أسلوب الرسائل الوصفية:

أ- طول الجمل. ب- التأثر بالقرآن الكريم. ج- التداخل مع الشعر. د- استخدام المحسنات البديعية.

الرسائل الوصفية حتى أواخر القرن الرابع

كثرت عند أعلام الكتاب في أوائل العصر الإسلامي الرسائل الوصفية كوصف الطبيعة ومظاهرها [3] "فأطالوا الحديث عن الأزهار والرياض والنبات، والليل والنجوم، والجداول والغدران، والأنهار والبحار، والبرك والأحواض، والمنازل والقصور، ومطارح القصف، والمجالس الشراب، والنساء والغلمان، والجواري السود، والقيان وآلات الطرب، ومحاسن الشباب، وأهوال المشيب، والرعد والبرق والنسيم والريح، والمطر والثلج، والصحو والغيوم، والبلاغة والشعر والنثر، والخيل والسيوف، والنار، والأفاعي والثعابين، والفواكه والسكاكين، والخواتموالحلى والقلائد والمحابر والأقلام، والسفن والدواب، والجيوش والأساطيل، وأيام الصيف والشتاء والربيع".

وأطنبوا في وصف المعاني الوجدانية، كوصف الحب والوجد والحقد والبغض، والكرم ونبل. وتلقى هذا الضرب (وصف الطبيعة) من الرسائل الوصفية في يسيرٍ من رسائل الحجاج، وكثير من رسائل عبد الحميد وغيرهم من الكتاب. كتب الحجاج رسالة بعث بها إلى عبد الملك بن مروان يصور فيها نزول المطر، فقال[4]:

((أمّا بعدُ، فإنَّا نُخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضنا وابلٌ منذ كتبت أُخبره عن سُقيا الله إيّانا، إلّا ما بلَّ وجه الأرض من الطشِّ والرَّشِّ والرَّذاذ حتى دَقِعَت الأرضُ، واقشعرتْ، واغبرَّت، وتارت في نواحيها أعاصيرُ، تَذرو دُقاقَ الأرض من ترابها... فالحمدُ لله الذي أنزل غيثه، ونشرَ رحمته من بعد ما قَنَطُوا، وهو الوليُّ الحميد، والسلام)).

ورسم عبد الحميد الكاتب مشاهد من الطبيعة، تتجلى فيها الطبيعة الجامدة، حيّة متحركة، والحيَّةُ صاخبة ناشطة، فقال [5] : "أمطرتْنا السماءُ مطراً متداركاً [6]، فَرَبت الأرضُ، وزَهر البقلُ، وسكنَ القَتَام من مثار السنابك، ومُتشعِّبات الأعاصيرمُهْلَةَ أن سرنا غَلَوات، ثم برزت الشمسُ طالعةً، وانكشفت من السحب مُسْفرةً، فتلألأت الأشجار، وضحك النُوَّار، وانجلت الأبصار، فلم نَرَ منظراً أحسنَ حُسناً، ولا مَرْموقاً أشبه شكلاً من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض".

إن قلم عبد الحميد الكاتب أَبْلَغَها غايتها في الإتقان، ووفَّاها حقها من الإجادة، فإن كنت مِمَّنْ يَرَوْنَ أن الأدب للمتعة لا للحياة وَجَدْتَ فيها ضالَّتَك.

---

[1] علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، دار الأدب، بيروت، 1990م، 401/1.

[2] عمر موسى باشا، النثر الفني في العصر الجاهلي، ص 240.

[3] زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع 210/1.

[4] د. غازي طليمات أ. عرفان الأشقر، النثر في العصر الأموي، ص 242.

[5] المصدر السابق، ص 244.

[6] متدارك: متتابع. القتام: الغبار. غلوات: جمع غلوة: قدر رمية سهم.

إن الكُتَّابَ السابقين أجادوا الوصف في كثيرٍ من الموضوعات ولكن كُتَّاب القرن الرابع عمدوا إلى كل ما يقع عليه الحس، أو يجري في الخاطر، أو ينعقده العقل، فوصفوه وصفاً مفصلاً مقصوداً بطريقة لم يفكر في مثلها المتقدمون[1].

من ذلك قولهم في وصف سكين[2]:

"سكين كأن القدر سائقها، والأجل سابقها، مرهفة الصدر، مخطفة الخصر، يجول عليها فرند العتق، ويموج فيها ماء الجوهر.... فكأنها ليل من تحت نهار، أو مجمر أبدى سنا نار، ذات غِرار ماضٍ، وذباب قاض – سكين أحن من التلاق، وأقطع من الفراق، تفعل فعل الأعداء، وتنفع نفع الأصدقاء".

وقد ظلت أمثال هذه التعابير الوصفية منبعاً يستقى منه الكتّاب والشعراء إلى العصر الحديث.

ومن ذلك رسالة أبي الفضل الميكالي يخاطب الثعالبي[3]:

((وصل كتاب سيدي ومولاي أبدع الكتاب هوادي [4] وأعجازاً، وأبرعها بلاغةً وإعجازاً، فحسبت ألفاظه دُر السحاب، أو أصفى قطراً وديمة، ومعانيه دُرر السخاب، بل أوفى قدراً وقيمة)).

يجد الناظر في هذه الرسالة الوصفية أنها جاءت مثقلة بالصنعة، ولا غرو من ذلك فقد بلغت هذه الصنعة أوجها في جميع فنون الكتابة حتى في التأليف وفي القصص، من صدور الكتاب (الديباجات) خاصَّة.

الرسائل الوصفية في القرن السادس

ازدهر فن الرسائل في القرن السادس الهجري وهذا شيء طبيعي يعود إلى ازدهار الحركة العلمية والأدبية التي عمت أرجاء هذه البلاد؛ ولأن النثر يصور مختلف مظاهر الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والدينية والثقافيّة في المجتمع الاسلامي، فقد ظهر الدور المُناط بالرسائل الوصفيّة كلونٍ من ألوان النثر الإبداعي، وشكّلت هذه الرسائل مصدراً من مصادر الثراء الفني، حيث يعتمد كاتبها على قوةِ الخيال والإبداع، فيُطلق العنان لفكره وقلمه لوصف ما تقع عليه عينه، دون قيود مفروضة، موشياً هذا الوصف بأجمل الألفاظ والمحسنات البديعية.

ولعل مرد استعمال الأدباء وإكثارهم منه في هذ القرن يعود إلى أن الوصف لازم طبيعة النفس البشرية، منذ طور البدء، حيث استبدت نزعة التقليد، فالبدائي ينسخ مظاهر الطبيعة، ويصف ما يرى من حوله، ببعض الرسوم والإشارات على جدران الكهوف والمغاور[5]، ومع تقدم الزمن أصبح الوصف باباً في معظم الفنون الأدبيّة، شعراً كان أم نثراً، بل أوسعها؛ لأن لأن هذا الغرض أشبه ما يكون محوراً رئيساً تدور حوله الفنون الأدبية. وقد مر هذا الغرض بأطوار من الاستقلالية جعلته غرضاً قائماً بحد ذاته، بعد أن كان متداخلاً مع الموضوعات الأخرى، ويمكن أن يكون الوصف بأبسط معانيه، من أقدم مضامين النثر الأدبي، كونه يعد من الأغراض الرئيسية للكلام بوجه عام، ولم يكن القرن السادس الهجري بمنأى عن هذا الوصف الذي يُعَدُّ من أبرز أغراض الكتابة في هذا القرنِ هو الدعامة التي تقوم عليها فنونهم الكتابية المختلفة، فهو فن من الفنون الكتابية الإنشائية عند المنشئين ومَناط خيال وإبداع، وتحمل هذه الكتابة الوصفية في ثناياها رسائل أدبية ندية ومعارض من القول ذات رؤى. وقد استجاب الأدباء المترسلون فيها لعواطفهم الجيّاشة، وانقادوا لأحاسيسهم، فصوروا

---

[4]زكي مبارك، في النثر الفني في القرن الرابع 211/1.

[5]الحصري القيرواني، زهر الآداب 141/2.

[6]المصدر السابق 114/1.

[4]الهوادي: جمع هاد، وهو العنق، والأعجاز: جمع عجز، والمراد بالهوادي والأعجاز في وصف الكتاب الفواتح والخواتم. الدَر بالفتح في الأصل اللبن، ومنه: لله در فلان: تمدح الأصل الذي نبت منه. السخاب: على وزن كتاب: قلادة من قرنفل.

[5] إيليا حاوي، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1967م، ص7.

انفعالاتهم إزاء الكون وبدائعه وظواهره الطبيعية ومشكلاتهم الثقافية والفنية، حتى إنّهم صوّروا كل ما يتصل بالنفس والمجتمع والحياة في رسائل وصفية اشتملت عليها كتبهم ودواوينهم وموسوعاتهم وآثارهم المخطوطة[1].ولعل من أبرز الموضوعات التي جسدوها في رسائلهم الوصفية الجهاد، والطبيعة والمظاهر الحضارية، والمجون، والأوبئة والكوارث، والصيد والطراد.

إن كتب الأدب العربي والتراجم تموج بكثير من الرسائل الوصفية التي أبدع كُتّابها في تدبيجها، واشتمالها لأوصاف عدة، تنبئُ عن ملامح الحياة في هذاالقرن.

ومن الجدير بالذكر أن الرسائل الوصفيّة في هذا القرن، قد أصبحت لوحة فنية تمتزج فيها الصور الفنية على اختلاف مصادرها، فالكتاب قد سلكوا بها إلى التصوير كل سبيل، فاستخدموا المجاز والاستعارة والتشبيه وألوان البديع، في رسم صور جزئية، تتّحد وتتجمع لتشكل الصورة النهائية للعمل الفني، مما ينبئُ عن حسٍّ وذوق أدبي مرهف. وآية ذلك قول العماد الأصفهانيّ الكاتب (ت 597هـ): «إنّ في الأرضِ الهَرَمين كما أنّ في السّماء الفَرْقَدَينِ، وهما كالطَودين الراسخين وكالجبلين الشامخين، قد فَنِيَتِ الدهورُ وهما باقيانِ، وقد تقاصرتِ القصور وهما راقيان. وكأنَّهما لأمِّ الأرضِ ثديانِ، وعلى ترائب التُراب نَهدان...»[2]وهذا ما نجده أيضاً عند ابن الأثير (ت 637هـ) الذي راح يصف الربيع بقوله:

«فصل الربيع هو أحد ميزاني عامه، والمستقيد لسامِه من حامِه، وقد وُصف بأنه مِيعادُ نُطقِ الأطيار، وميلادُ أجِنّة الأزهار، والذي تستوفي به حولها سلافة العقار، فإذا سلَّتِ السُّحبُ فيه سيوفَها، كان ذلك للرضا لا للغضب، وإذا خلعت على الأرض غلالتَها الدكناءَ لبست منها ديباجةً منسوجةً من الذهب»[3].

ولجأ عماد الدين الأصفهاني (ت 597هـ) إلى الاستعارات المتتابعة التي قد تُخرج النص عن مراده أحياناً، ومثال هذه الاستعارات وصفه لمعركة حطين حيث يقول: «فاغتنمنا الغِرَّ في اللِّقاء، وهِجْنَا إلى الهيجاء، وأسرعتِ الأعِنةُ، وأُشْرعت الأسِنَّة، ونقعَ النقعُ أوامَ الجوّ، وأجابَ الصَّدى دويّ الدر، وجال الجاليش وطارَ السَّهمُ المريش، وعصفتْ رياحُ السَّوابق، واستعْبَرَتْ عيُون البوارق، ولقيناهُم في عرمْرَم عارم ومجرٍ جَارم، وعوامِل جوازم وصواهل صَلادِم، وضراغمَ ضوارٍ، وجوارحَ جوار، وأُسودٍ قد اعتقلت أساود، وجياد قد حملت أجاود، وسوابحَ قد أقلّت بحوراً، وصقورٍ قد ركبتْ صقوراً...

وما زالت الحملات تَتناوبُ، والأسلاتُ تتواثَب، والسواعِد بقرعِ الظُّبى سَواعٍ، والرَّواعِفُ في زرعْ الطُّلى رَواع، والمنايا تئِنُّ والحنَايا تحِنّ، والبِيضُ تُصَافِحُ البَيْضَ صِفاحُها، والذكورُ لنتاجِ الحْرب العَوان بالفتح البكْر عندَ اللقاءِ لقاحُها، والذَّوابلُ في أشاجع الشُّجعان ذواب، والصوارمُ لجوامحِ النيران شَرابْ. ولما أحسُّوا بأُسَنَا وإمرار أمْراسِنا، والهجيرُ يَتلظَّى، وقد وَقَدَ عليهم بنارِه، وأخذُوا طريق البُحيْرة للارتواءِ، فأخذْنا قدامَهم، ووقفنا أمامَهم، وحلأْناهم عن الوِرْد، وألجأْناهم بالرَّدى إلى الرد، فاعتصموا بتل حطِّينَ، وصِرْنا بهم مُحِيطِين، وتحكَّمتْ فيها قَواضِبي القَواضب، ونشبتْ من النُّشَابِ بهم نيوبُ النَّوائبِ»[4].

انظر كيف سعى الرجل سعياً إلى حشد طائفة من الأسجاع والجناس والمقابلات التي حالت دون إيصال الفكرة، حتى ليبدو للقارئ أن الرجل يريد جمع الفنون البلاغية في هذه القطعة الأدبية دفعة واحدة.

---

[1] د. حسين خطيبي، فنّ نثر در أدب بارسى، ص 431، 432.

[2] د. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، بيروت، دار العلم للملايين، 1981، ط3، 150/3.

[3] ابن الأثير، المثل السائر، 107/1.

[4] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القدسي في الفتح القدسي، ص 167.

الرسائل الوصفية عند عماد الدين الأصفهاني

الوصف من الموضوعات التي أكثر فيها العماد وأبدع، وذلك بسبب مقدرته اللغوية وبراعته في اختيار الألفاظ والجمل، واختلفت طريقته في الوصف من نص إلى آخر، في افتتاح كلامه والمفردات الغريبة التي أوردها، وطول النص وقصره، وتعدد فقراته وغيرها من طرق بناء النص التي اعتمدها،وكان العماد يميل إلى استخدامالسجع في معظم نصوصه لاسيما في تصانيفه التاريخية ، وذلك لتعادل فقراته، مما يضفي على نثره قوة إيقايقة.وقد صنف كتابين مسجوعين:أحدهما الفتح القدسي، والثاني البرق الشامي [1].كان بارعاً في الوصف وتعددت موضوعاته في هذا الفن واجاد فيوصف السلطان والحروبونتائجها، ووصف الطبيعةوغيرها. وسيقسم الوصف بحسب معانيه إلى الأقسام الآتية:

- وصف أعمال السلطان:

يصف عماد الدين الأصفهاني في هذا النص صنيع السلطان بأعدائه، ويرسم لنا كيف أنه هزمهم هزيمة نكراء، فقال[2]: «فأقام عليها يرهق ويزهق، ويحرب[3] ويحرق، ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق، حتى ألحق الموجود بالمعدوم، وأتى بالقطع على البساتين والكروم، ورعى الزروع، وعرى الضروع، واستأصل الأصول والفروع حتى أقوت [4] الأقوات، واستمرت الغلة بغلاء سعر الغلات، وحلت آجال الأرزاق، وانحلَّت عرى الإرماق ...». قام السلطان بقطع الغذاء عن أعدائه وحاصرهم فاستسلموا، غير أن الكاتب أراد حشد جملة من المحسنات البديعية في هذه الرسالة لهذا جاءت بهذا الطول.

ووصف إعدد السلطان للحرب ومرابطته مع جنده في سنة (573هـ) فقال[5]: ((والسلطان مخيم بمرج الفاقوس من أعمال مصر الشرقية في عصبته ذوي عصبته التقية النقية، والإسلام زاهر زاه، والكفر واهن واهنٍ، والملك مصون والفلك مشحون، والنصر مضمون، والدهر مأمون، والعصر ميمون، وسر التوحيد سار، وقلب الشرك مخزون وذخر المال مبذول، وكنز الحَمد مذخور مخزون...)).

أما النصوص التي وردت في وصف المعارك وأحوالها، فنجد أن عماد الدين الأصفهاني يبالغ في نقل صور حسيّة مخفية ومرعبة، وفي أحيان أخرى يصور لنا المأساة التي تحدث بعد الحرب من تمزق الجنود وتفرق أشلائهم في العراء، ونقل لنا صوراً رآها بعينه، وبالغ في تصويرها.

فمن وصفه لساحة المعركة بعد انتهاء الحرب في سنة (573هـ) قائلاً[6]: ((وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عراة، ممزقة بالمآزق[7]، مفصلة المفاصل، مفرقة المرافق، مجدوعة الآناف، منزوعة الأطراف، الأطراف، معضّاة الأعضاء، مجزأة الأجزاء مفقوءة العيون، مفرية اللبان، مقصومة الأضالع، مفصومة الأشاجع... مفتونة الأفلاذ، مبتوتة الأفخاذ، مشدوخة الهامات، مسلوخة اللبات، عديمة الأرواح...)).

---

[1] عمر موسى باشا، الأدب في البلاد الشام 817-818.

[2] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ص 11، 24، 32...؛ عماد الدين الأصفهاني، البرق الشامي، ص 125.

[3] يحرب: حربه يحربه إذا سلب الرجل ماله. مادة/حرب.

[4] أقوت: نفقت غلاتهم ونفدت. مادة/ قوت.

[5] عماد الدين الأصفهاني، البرق الشامي 23/3.

[6] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي ص 11، 22، 218.

[7] المآزق: السيف، اللسان مادة /مزق. مقصوفة: مكسورة، اللسان مادة / قصف. منزوعة: مقلوعة، اللسان مادة /نزع. معضّاة: مجزأة، القاموس المحيط مادة /عضو. مفرية اللبان: مقطعة الصدور، اللسان مادة / لبن.

– وصف الأبراج:

كان عماد الدين يميل إلى الوصف لأن الوصف يظهر المهارة في التشبيه والتعبير معاً وقد كتب في هذا الموضوع (رسالة إلى اليمن) حيث وصف فيه الأبراج التي أُحْرِقَتْ على يد الفرنج قائلاً[1]:

((استنفد الفرنج أموالهم في عدد أعدوها، وآلات أجدوها، وأحكموا أبراجاً شامخات ومجانيق شادخات، وزاد غرامهم بالغرامات، واستقلوا على عمل الأبراج كثرة الخسارات، ومكثوا مدة على لجاجهم، يطرقون بين أيدي أبراجهم،... وأشرفوا منها على سور البلد بأسوار ذات أسواء، وجاؤوا بآلات علات وأدوات أدواء، وأشفى البلد من بلائها وأشفق... ولمع نور البصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان، وكما قال الله تبارك وتعالى: {يُرْسَلُ عليكما شواظٌ من نارٍ ونُحاسٌ فلا تنتصران} [2]... تقدم المشركون بالأبراج إلى البلد فقرَّبوا الأسواء من أسواره وألصقوا منها جدراناً بجداره، وأشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره، فأظهر الله ما كان خفياً من سر أقداره، وأحرق عمل أهل النار بناره....)).

– وصف عسكر عماد الدين:

وفي رسالة كتبها عماد الدين يصف فيها جيش صلاح الدين، وصف الجيش بكثرته التي لا يمكن إدراكها، يسحقون أمامهم كل صعب، ويذللون كل مستحيل، لإدراك عدوهم والظفر به فيقول في رسالته واصفاً هذه العساكر [3]: ((وصلت العساكر التي وفت بعدتها المناجدة، ووافت بعدتها المنى جدة، وأقبلت إقبال الآساد في عرين الوشيج، وماجت موج البحار في غدير الزغف النسيج... وانتظمت أحداق المشركين في عقود سهامها، وخيمت مضارب المضاء بمضارب خيامها، وفضّ بالفضاء ختام قتامها، وما أشكر الدين والإسلام لعزائم عماده وغياثه، وأبعث أمداد الظفر لاهتزاز نصل نصره وانبعاثه)).

ويصف عماد الدين العساكر وعدتها ويصور مشاهدَها تصويراً دقيقاً، يُنبئ عن القوة والاستعداد لمواجهة المشركين، وأهمية النصر الذي حققه وأثره في رفع الروح المعنوية للمسلمين، وبث الخوف والرهبة في صفوف أعدائهم، ونلمس من هذه الرسالة، أن عماد الدين قد أبدع في صياغتها، وصقل أفكارها وارتبط فيها المدح والثناء مع الوصف، ويعتمد على الخيال والتشبيه والاستعارة والمحسنات اللفظية كالجناس والموازنة.

–وصف الطبيعة:

يُكثر عماد الدين الأصفهاني في رسائله من وصف الطبيعة ومظاهرها من قحط وبرد، ونبات وأشجار وأحجار وزلازل، وغير ذلك، ومن ذلك وصفه لفصل الربيع، يقول[4]: (والدهر قد ثَمِلَ وأفاق، والزهر قد شمل الآفاق، وللمحاب[5] وللمحاب[5] مهابٌ، وفي الشعاب أعشاب، وخدود الشقائقمحمرة، وثغور الأقاحي مُفترَّة، وعيون النرجس مصفرة، وشفاه

---

[1] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس، ص ص 110.

[2] الرحمن، الآية 35.

[3] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 262، 263.

[4] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 93–94.

[5] المحاب: قطرات الطل مادة/ حبب. مفترة: ضعيفة مكسورة. مادة/ فتر. عذبات: جمع عذب وهو النبات المستساغ. مادة/ عذب. متدبجة: منقشة ومزينة فارسي معرب. مادة/ دبيج. متغضنة: متثنية متكسرة. مادة/ غضن. متوسنة: ناعسة. مادة/ وسن. الخيري: نبات يشبه القثاء وليس بعربي، وقيل نوع من الورد وهو أنسب للسياق. مادة/ خير. العرار: نبت يقال له عين البقر وهو البهار البري. مادة/ عرر. البهار: نبت طيب الريح. مادة/ بهر. عذار البنفسج: منبته. مادة/ عذر.

المنابع مخضرة، وأحداق الحدائق الناضرة ناظرة، ووجنات الجنات الزاهية زاهرة وعذبات المنابت متموجة، وحافات المناهل متدبجة، وجبال الغدران متغضنة، وجُفُون النوار متوسنة، والأفنان مورقة، والورق متفننة، وخد الخيري مُورَّد، وحد العرار مُجرَّد، وعَرف البَهار قد تأرَّج، ووجه الجلناز قد تَضرَّج، وعذار البنفسج قد بقل ...).ومن غير شك أن تواصل قارئ من عصرنا هذا مع النص سيكون صعباً عسيراً لكثرة الألفاظ الغريبة التي أوردها العماد، غير أن النص في عصره يعد مثالاً بلاغياً عالياً ومقدرة لغوية للعماد.

- زلزال مدينة عسقلان:

ووصف لنا ما يسببه الزلزال من دمار وخراب وتشريد للناس الآمنين، فقال في وصف زلزال ضرب مدينة عسقلان[1][2]: ((ورأيت دائرة الزلزال في دورها المتزلزلة، وناحت تلك النواحي ومسحتها المساحي، وجرفتها المجارف، وأخافتها المخاوف، ونكرتها المعارف، وبهرجتها [3] الصيارف، ونعتها النواعب، ونابتها النوائب ونزلتها النوازل، وغالتها الغوائل [4]، وسفتها السوافي، وعفتها العوافي، ...، ووقفت على طلولها، واستوقفت، وأسيت عليها وأسفت، وتلهبت وتلهفت، وشاهدتها وقد حسرت وحفيت، ومحا سنا محاسنها وخفيت، وبكيت تلك الربوع، وأهديت لسقياها الدموع... فلمّا خلت مساكنها من سكانها تخلف بالبيوت رماد نيرانها...)).

وقد جاء خبر الزلزال بهذه الصورة في كتب التاريخ، وقد هلك بها كثير من الخلق، وهذه الزلزلة الكبيرة التي أرَّخها عماد الدين الأصفهاني، ووصفها وصفاً دقيقاً، حيث مات أمم لا يحصون ولا يعدون، فقال صاحب ((مرآة الزمان))[5]: ((إنه مات في هذه السنة (656هـ) بسبب الزلزلة نحو ألف ألف ومئة ألف إنسان قتلاً تحتها وقيل إن أحداً أحداً لم يُحصِ من مات والله سبحانه أعْلَم)).

وصف المشمش وأجاد في ذكره، ورسم له صورة لطيفة فقال: ((وطلعت في أبراج الأطباق نجومها، كأنها كرات من التبر [6] مصوغة أو بالورس [7] مصبوغة، صفر كأنها أثمار الرايات الناصرية، حلا ذوقاً، وأحل شوقاً، ولو نظم جوهره لكان طوقاً، وهو أحلى من السكر، وأعبق من العبهر [8]، وأحسن هيئةً من النارنج الأحمر والليمون المركب المدور، وقد زفت عروسه في الثوب المعصفر [9]، والخمار المزعفر [10]، كأنما خرط من الصندل [11]، وخلط بالمندل[12]، وجمد من الثلج والعسل، فهو الذي يضرب بضربه مثل الثمل))[13].

---

[1] عسقلان: مدينة في الشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر (عروس الشام) الحموي، معجم البلدان، 122/4.

[2] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، المطبعة الخيرية، مصر، 1322، ص ص 182-235، 240؛ سنا الشامي ص157.

[3] بهرجتها: أباحتها، لسان العرب مادة / بهرج.

[4] غالتها الغوائل: أصابتها الدواهي والمصائب، اللسان، مادة / غلي، غيل.

[5] ابن كثير، البداية والنهاية، 607/16.

[6] التبر: الذهب، اللسان: تبر.

[7] الورس: صبغ أصفر، اللسان: ورس.

[8] العبهر: الياسمين (أي أنه أحلى ريحاً من الياسمين) اللسان عبق، عبهر.

[9] المعصفر: المحلى بالصبغ والألوان: اللسان: عصفر.

[10] المزعفر: المصبوغ بالأصفر، اللسان: زعفر.

[11] الصندل: شجر طيب الريح، اللسان: صندل.

[12] مندل: العود الرطب، اللسان: مندل.

[13] الفتح القسي: 105.

- زلازل بلاد الشام:

ووصف لنا الزلازل الذي أصاب بلاد الشام بأنه زلزلة عظيمة خربت كثيراً من البلاد فقال في وصفها[1]:

"وأصبحنا يوم الإثنين الثاني من شوال وأنا في خيمتي جالس فأحسست بأرضٍ تحتي تموج كالبحر إذا عصفت به الرياح الهوداج، فما أروعها زلزلة وأصدعها آية من الله منزلة...".

إنها رسالة طويلة ، تخبرنا بما حدث في جميع بلاد الشام بما أحدثته من الإنهداد والإنهدام ويقول في زلزة حلب[2]: ((وكان الهم الكبير في حلب لانهدام مبانيها وانهداد مغانيها...)) والذي يبدو أن القرن السادس الهجري لم تنقطع الزلازل فيه فكانت متعاقبةً ومنها، زلزال مدينة حلب سنة 565 هـ فقد قال القاضي بهاء الدين ابن شداد، قاضي حلب في تأليف سيرة صلاح الدين: ((بأنه جاءت بحلب في ثاني عشر من شوال سنة 565 هـ زلزلة عظيمة أخربت كثيراً من البلاد)) وهو معاصر للحادثة.

ويخبرنا عماد الدين الأصفهاني عن الحوادث التاريخية وفيها الزلازل التي ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة وبلاد الروم والعراق وقد ضرب كثير منها دور كثيرة، وتخربت محال عدة، الشام بأهلها، حيث تهدمت فيها محيت قرية من أرض بصرى، أما سواحل الشام وغيرها فهلك فيا خلق كثير، ودُمرات محال كثيرة من طرابلس وصور وعكا ونابلس.[3]

- وصف المدن والقلاع والحصون:

وصف عماد الدين الأصفهاني في مصنفاته بعض المدن التي رآها، وفتحها صلاح الدين، وصورها ببراعة تدل على مقدرته الكبيرة على اختيار الألفاظ ووضعها في جمل معبرة عن الغرض، فقال في وصف صرفند [4]: (فصرفنا الأعِنّة إلى صَرْفَند، وأسَمنا[5] في مسارِحِها الجُند، وهي مدينة لطيفة على الساحل مَورودةُ المَناهل، ذات بساتين وأزهار ورياحين، وأشجار النارنج والأترنج، تُعرِبُ مَسرّاتُها لجناتها عن أشجان الفِرنج، فجُسنا خلالها، وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية، وقرتنا بما اشتهينا من فواكهها تلك القرية...)[6].

هذه القطعة أطلق فيها عماد الدين الأصفهاني العنان لقلمه حتى يغوص في الخيال ومكنوناته، فجاء بهذا الإبداع الأدبي الذي لم يسلم من كثرة المحسنات البديعية التي خلعت على النص مسحة جمالية.

- وصف مدينة اللاذقية:

وقال في وصف اللاذقية (جبلة) وتناسق مبانيها، وإنها عصية على الفرنج، وأن مجانيها قريبة قائلاً (589هـ)[7]: ((...ورأيتها بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية، متناسبة المعاني، متناسقة المغاني، قريبة المجاني، رحيبة الموانى، في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، أمكنتها مخدّمة، وأروقتها مرخّمة، وعقودها محكمة، ومعالمها معلمة،

---

[1] الفتح ابن علي البنداري، سنا البرق شامي، اختصار كتاب البرق الشامي لعماد الدين الأصفهاني تحقيق فتحية النبراوي مكتبة خانجي ، مصر، 1979م، ص47؛ عماد الدين اصفهاني البرق الشامي 17/1.

[2] عبد الكريم السمك، الزلازل أخبارها في مصادر التاريخ الإسلامي، الموقع الإلكتروني www.alukan.net

[3] سنا البرق الشامي، ص 48، 49.

[4] صرفند: قرية بالشام على ساحل البحر من أعمال صور، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، (ت 571هـ) تحقيق علي شيري، دار الفكر، 1415هـ، 21/53.

[5] أسمنا: تركنا الجند تجوب أنحاءها. مادة/ سوم.

[6] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 31.

[7] عماد الدين الأصفهاني، البرق الشامي 83/5، الفتح القسي في الفتح القدسي، 110، 118، 120، 129، 131، 139، 264، 340.

ودعائمها منظّمة، ومساكنها مهندسة ومهندمة، وأماكنها ممكنة، ومحاسنها مبنية، ومراتبها معيّنة، وسقوفها عالية، وقطوفها دانية، وأسواقها فضية، وآفاقها مضية، ومطالعها مشرقة، ومرابعها موفقة، وأرجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة..)).

لعل من أهم المشاهد التي صورها في تلك الرسالة وصف المظاهر الحضارية، والطبيعية الحية والخلابة ممثلةً بالأبنية والمواني والبساتين ومنها أسواقها، وآفاقها، وهوائها، وافتتانه بمظاهر الجمال التي تأخذ المرء من نفسه إلى عوالم أخرى مملوءة بالراحة.

- وصف البيت المقدس:

وقال في وصف بيت المقدس[1]: ((إن أسعدنا الله على إخراج أعدائه من بيت المقدس فما أسعدنا... وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدّس الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء... وقال عزّ من قائل: {سُبحان الذي أسرى بعبدهِ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى}[2].

وله فضائل ومناقب لا تحصى، وإليه ومنه كان الإسراء، ولأرضه فتحت السماء وعنه تؤثر أنباء الأنبياء وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء.وكان في القدس حينئذٍ من الفرنج ستون ألف مقاتل، من سائف ونابل، وبطل للباطل وعاس عاسل بالعاسل.

وقاتلوا أشد قتال، وناضلوا أحَدَّ نضال، ونازلوا أجدَّ نِزال، وطافوا بصحاف الصفاح... ودامت الحرب، استمر الطعن والضرب، فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب إلى الجانب الشمالي وخيَّم هناك، وضيَّقَ على الفرنج المسالك، ووسع عليهم المهالك، ونصب المجانيق... وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة، في عبادة الصليب متصلبة، وعلى مصابها به متلهبة...

بدأ الرسالة بمقدمة قصيرة من الحمد والصلاة وأشار فيها إلى موضوع رسالته التي اتصفت بالإطناب في الوصف، وقد استند في آرائه إلى الاقتباس من القرآن الكريم، وغَلَبَت الصنعة اللفظية على أسلوبه لاسِيَّما الجناس وتقطيع الجُمَل وتوازنها، ووصف عماد الدين الأصفهاني في هذه الرسالة بيت المقدس، والمسجد الأقصى، وجيوش الفرنج، وساحات الحرب، والملكة الرومية، وانتصار صلاح الدين على الفرنج.

أما فيما يختص في وصف المدن والبلدان فقد تفنَّن الكتّاب في وصف المدن والبلدان المختلفة التي زاروها، وسجَّلوا مشاهداتهم فيها، الأمر الذي يجعل بين أيدينا وثيقة تاريخية تحدثنا عن تلك المدن والحال التي كانت عليها من تطور حضاري ومن اشتمالها على أسباب المعيشة والرفاه الاقتصادي.

مما يجدر ذكره، أن وصف المدن والبلدان يقترب من أدب الرحلات حيث يقوم الأديب،أثناء تنقله، بوصف ما يشاهد من معالم، وما يمر به من مدن بلدان.

((وفي وصف البلدان تقع على ضربين من الوصف: أحدهما يُكثر من تعداد البلاد، ويوجز في وصف كلِّ بلد. والثاني يختار بلداً واحداً، يُقدِّمه على سواه، ثُمَّ يوفيه حقَّه من الوصف المفصَّل، فتحسُّ أن في هذين الضربين المختلفين تمهيداً للوصف الذي ملأ كتباً مطولة، ألفها بعد أمد الرّحالة العصر العباسي[3].

---

[1] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي (حروب صلاح الدين) ص ص 69، 70، 71، 72.

[2] الإسراء، الآية 1.

[3] د. غازي طليمات، أ. عرفان الأشقر، النثر في العصر الأموي، ص 594.

بناء الرسالة الوصفية لدى عماد الدين:

من خلال الرسالة الوصفية التي مرَّت معنا، واطلعنا عليها في مصادرها الأصلية، نجد أن الشكل الفني للرِّسالة قد جاء ناقصاً – في تقديري – ولا يشمل على البسملة، وإن كانت تبركاً بالابتداء، وتيمناً بذكرها، ولربما عاد السبب إلى عبث النُّسَّاخ وكُتَّاب الوُثاق، فقد جمعوا معها الحمدلة والصلاة ونحو ذلك[1].

أما مضمونها فبعض الرسائل كان عنوانها كافياً لمعرفة مضمونها، كرسائل الوصف التي اختصت بالغزوات ومظاهر الحضارة والطبيعة و...

وبالنسبة لخاتمة الرسالة فقد أظهر عماد الدين الأصفهاني اهتماماً بها، كمثل اهتمامهم بفواتح رسائلهم، كل بحسب أسلوبه وتقنياته الكتابية فأحياناً قد يختم بأبيات من الشعر، أو بالدعاء للمكاتب، أو قد تنتهي بالحمدلة أو الصلاة على النبي (صلوات الله عليه) مثل رسالة كتبها إلى مظفر الدين صاحب إربل وقوله في خاتمتها: ((وما توفيقنا إلا بالله وعليه توكلنا، وهو نِعمَ الوكيل))[2].

الصورة الفنية لدى عماد الدين:

الصورة الفنية وسيلة من وسائل التعبير أو وجه من أوجه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصيّة وتأثير لدى المتلقي حيث يعبر بها الأديب عن حالات لا يمكن له أن يوضحها ويجسدها بدون الصورة. وتتمثل أهمية الصورة في الطريقة التي تفرض بها علينا نوعاً من الانتباه للمعنى الذي تعرضه، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثر به[3].يلجأ الأدباء للخيال كي يُكَوِّنوا صورهم الفنية، فتراهم يحشدون الصور الجزئية المتمثلة بالاستعارات والكنايات، لتكوين الصورة الأم، كي تحوّل الجمادات إلى كائنات حية تنبض بالحياة.

وقد استعمل عماد الدين كثيراً من الفنون البيانية وأجاد في استخدامها من (تشبيه واستعارة وكناية)، وكانت تشبيهاته بليغة ومؤثرة، أما الاستعارة فقد تنوعت الأساليب التي تناولها بها، وكانت أكثر كناياته تتناول فساد الروم وغيرها من الكنايات، وتلك صورة عن سماته الكتابة الفنية عنده.

وعند بحثنا عن مصادر الصورة الفنية لدى كُتَّاب الرسائل الوصفية نجد أنها تعود إلى مصدرين أساسيين، هما: البيئة وثقافة الكُتَّاب. وأول ما نقف عليه من ثقافة الكاتب، هو اعتماده على القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي، أما المصدر الآخر للصورة الفنية، فهو الطبيعة، وما تتضمن من حدائق وجبال، وأنهار ومناظر خلابة.

ويبدو أن عماد الدين قد أولع بمظاهر الطبيعة، وخصوصاً النبات، والقحط والزلزال، وفصول السنة وأحوالها، وغذت الطبيعة خيال الكاتب بصورها، فعبر عن العلاقة الحميمة بينه وبينها. ومما يطالعنا من الصورة الفنية في الرسائل التي اهتمت بوصف الطبيعة رسالته لعماد الدين الأَصفهاني يصف الشتاء فيقول[4]: ((ولما اشتد البرد، وتوالت الغيوث، وتبحرت السهول والوعوث، وحالت الأوحال، ولاحت على خلاف المراد الأحوال، وتعذر الخروج إلى تلك المروج...)).

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، 215/6.

[2] الفتح الشامي، ص 267.

[3] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار التنور، بيروت، 1b، 1985م، ص323، 328، 383.

[4] الفتح القسي، 182، 235. البرق الشامي، 135/3.

ولو نظرنا في النص لوجدنا أنه شبه (شدة البرد بفصل الشتاء برجل شديد القوة منع الناس من الخروج من منازلهم، و قيد حركتهم، واحتجزهم في منازلهم.

الاستنتاجات والتوصيات:

من خلال ما سبق توصل البحث إلى أهمِّ النتائج الآتية:

1 -في أسلوبه الكتابي يميل فطرياً أن يصف ما يثير مشاعره، وإذا كان مبدعاً أن يقدم وصفه في صورة فنيّة تحمل أدق المشاعر إلى السامعين.

2 -من الواضح أن الكتابة في القرن السادس الهجري قد كانت صناعة فنية قائمة بحد ذاتها، لها خصوصيتها وميزاتها وهذا واضح في الرسائل الوصفية التي وردت لنا من عماد الدين الأصفهاني.

3 -لم تُعرف لفظة (الرسائل الوصفية) كمصطلح أدبي يَدلُّ على نمطٍ خاصٍّ في أدب الرسائل، ولكن جاءت الرسائل الوصفية ضمن الرسائل الديوانية والرسائل الأدبية، والرسائل الإخوانية، لكنها رسائل اعتمدت على الوصف والتصوير، ومن هنا جاءت تسميتها.

4 -إن كتب الأدب العربي والتراجم تموج بكثير من الرسائل الوصفية، والتي أبدع كُتَّابها في تدبيجها، واشتمالها لأوصاف عِدَّة، تُنْبِئُ عن ملامح الحياة، منها عماد الدين الأصفهاني وهو من الكُتَّاب الذين ينتمون إلى ديوان الرسائل في عهد صلاح الدين.

5 -يعتمد عماد الدين الأصفهاني في أسلوب الكتابة على الإكثار من استعمال المحسنات البديعية لاسِيَّما السجع في رسائله الوصفية والتاريخية، بدرجةٍ مُمِلَّة مرهقة تجعل استخلاص الحقائق الوصفية والتاريخية منها أمراً صعباً ومهمة شاقة.

6 -إن موضوعات الرسائل الوصفية تخاطب جميع الناس وعلى اختلاف ثقافاتهم، فجاءت واضحة المعالم، ممتعة الوصف، حتى ينهل منها كل مطلع.

7 -يُكثر عماد الدين في رسائله من وصف الطبيعة ومظاهرها من قحط وبرد، ونبات وأشجار وأحجار وزلازل، وغير ذلك.

8 -كان عماد الدين يميل إلى الوصف لأن الوصف يظهر المهارة في التشبيه والتعبير معاً.

9 -لعل من أهم المشاهد التي صورها في رسائله الوصفية هي وصف المظاهر الحضارية، والطبيعة الحية والخلابة التي تأخذ المرء من نفسه إلى عوالم أخرى مملوءة بالراحة.

المراجع:

-القرآن الكريم.

-حاوي، إيليا، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت–لبنان، ط1، 1967م.

-د. غازي طليمات، أ. عرفان الأشقر، النثر في العصر الأموي، دار الفكر، دمشق، 2010م.

-أبو الفرج، قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط15، 1933م.

-زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، منشورات المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، بلات.

-ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1966م.

-ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة.
-ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مطبعة المأمون، مصر، بلاط، بلات.
-عمر الفروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1979م.
-الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م.
-عماد الدين الأصفهاني:
- البرق الشامي، تحقيق: فالح حسين، ط1، عمان، 1987م.
- خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: محمد بهجة الأثري، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ط1، 1955م.
- الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار، بيروت، ط1، 2004م.
- سنا البرق الشامي، اختصار الشيخ بن علي البغدادي، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر– القاهرة، 1979م.
- تاريخ آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت–لبنان، ط2، 1978م.
- نصرة الفطرة وعصر القطرة، من الكتب المخطوطة.
-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت–لبنان، 1992م.
-عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، دار الفكر، دمشق–سورية، ط1، 1989م.
-الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط2، 1984م.
-شهاب الدين المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة وادي النيل، القاهرة، 1287هـ.
-جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، ط1، 1978.
-عبد الغني إيرواني زاده، ونصر الله شاملي، الأدب العربي والإيرانيون، نشر سمت، طهران، ط4، 1388هـ.
-شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط13، دار المعارف، القاهرة، 1960م.
-حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث، بلاط، بلات.
-علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، 1990.
-أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، بيروت–لبنان، ط12، 1362هـ.
-ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، دمشق، 1415هـ.
-ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1985م.
-القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار بولاق، 1919م.
-جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار النور، بيروت–لبنان، ط 1، 1985م.